

الفصل الثامن

تأملات قانونية في قصتي يوسف وموسى عليهما السلام

تمهيد:

يطالعنا القرآن الكريم في بداية قصة يوسف بشارة بقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَّائِلِينَ﴾ ، أى عبر ودروس للناس.

ويوسف وموسى من أنبياء الله عليهما السلام وهما من بنى إسرائيل. ولد يوسف فى فلسطين وبيع فى مصر وتربى فى بيت الحكم. بينما ولد موسى فى مصر من أحد أبناء الجالية التى قدمت من مصر إلى فلسطين من بنى إسرائيل والراجح أن تولى يوسف منصبا كبيرا فى مصر كان السبب فى استقدام بنى إسرائيل إلى مصر. فالعلاقة بين يوسف وموسى لها جوانب متعددة،

الجانب الأول هو أنهما من أنبياء الله ومن أنبياء بنى إسرائيل حتى قبل نبوة موسى لأن يعقوب والد يوسف كان أيضا من بنى إسرائيل فالنبوة فى بنى إسرائيل سابقة على يوسف وموسى. الجانب الثانى هو أنه بالإضافة إلى أنهما أنبياء ومن بنى إسرائيل، أن كليهما تم التقاطه بلفظ القرآن الكريم فهما لقيطان، "فالتقطه بعض السيارة" بالنسبة ليوسف ، " فالتقطه آل فرعون " بالنسبة لموسى. فيوسف التقط من البئر وموسى التقط من النهر والالتقاط يتسم بالخطر والحرص على الملتقط أو اللقيط. ثم تربى كلاهما فى بيت الحكم فصار يوسف

عزير مصر أو وزير ماليتها والمشرف على مواردها الطبيعية ، بينما تحدى موسى فرعون الذى تربى فى بيته. ومن المصادفات الغريبة أن الأسرتين اللتين استقر عندهما يوسف وموسى كان الرجل والمرأة عقيمين لا ينجبان) وان تردد أنه كانت لفرعون ابنة وقد تكون قد ولدت بعد التقاط موسى لتكون في سلم الوراثة والحكم وهو ما لم يتحقق لموسى). ولذلك صار كل منهما ابنا بالتبنى. ولكن المفارقة فى القصتين هى أن امرأة العزيز تحرشت بيوسف ولم تحفظ علاقة التبنى التى قررهما زوجها بينما امرأة فرعون بنص القرآن كانت مؤمنة وهى السبب في احتفاظ فرعون بموسى "قرة عين لي ولك"، وهى التى ساعدت على إنقاذ موسى من بطش فرعون عندما كان رضيعا ولذلك اختصها الله بالذكر بالصفة والكنية دون ذكر اسمها ، ووضعها فى مرتبة متميزة وضرب بها مثلا، بالتقابل بينها وبين امرأة لوط.

المبحث الأول

قصة يوسف

تمهيد

من الواضح من سياق القصتين أن يوسف لم يجد صعوبة دينية في منزل العزيز، ولكن يوسف لم يدعو إلى الله كسائر الانبياء ولا يعرف إن كان العزيز والملك من الطائفة الإبراهيمية أم من غير ذلك من العقائد التي كانت منتشرة في ذلك الزمان. (ويقال أن يوسف وفد الي مصر عندما كانت تحت حكم الهكسوس ولذلك سمي القرآن الحاكم بالملك علي خلاف فرعون موسى).

أما في عصر موسى ويرجح أنه جاء بعد عصر يوسف بعدة قرون، كانت الطائفة من بنى إسرائيل قد استقرت في مصر منذ أيام يوسف ولكن فرعون نكل بها ولذلك كانت المهمة الأساسية لموسى وهو مصرى المولد والنشأة أن يخرج بنى إسرائيل من بطش فرعون الذى ذكر لنا القرآن الكريم صورا مفزعة عن معاملته لأبناء هذه الطائفة " يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم". أى أن سياسة فرعون انصببت على اضطهاد هذه الطائفة ولكن في سياق قصة موسى كان واضحا التحدى الذى مثله موسى لألوهية فرعون تلك الألوهية التى نعتقد أنها كانت سياسية وأن فرعون كان يعلم علم اليقين أنه ليس إلها ولكن المرحلة التى ظهر فيها موسى كان نظام الحكم فى مصر يعترف بألوهية فرعون بعد مروره بمراحل من ظل الله على الأرض إلى ابن الإله ثم نصف إله ثم إله. ومن الواضح أن الفرعون كان يدرك تماما أنه ليس الإله وكان استخفافه بالمصريين هو سبب تماديه " أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار

تجري من تحتي " ، " هل لكم من إله غيري " . ولذلك جاء في تكليف الله لموسى أن يذهب إلى فرعون لأنه طغي أي جاوز الحد بالنية لله ولرعيته ولبنى إسرائيل وأن يقول له قولاً لنا لعله يتذكر أن الله موجود، أو يخشى بطش الله به بافترائه على الله وادعاء الألوهية وبذلك أمر موسى أن يستخدم أهم مصدرين من مصادر المعرفة وهما العقل والقلب.

وفيما يلي من الصفحات نسجل بعد الخواطر القانونية واللفات الفنية التي زخرت بها قصة يوسف في سورة يوسف حيث بدأت السورة بالتأكيد على أن القرآن نزل بلغة عربية فصيحة وأن قصة يوسف مليئة بالعبر ومن بينها العبر القانونية التي نتوقف عند بعضها في تأملنا لهذه القصة.

فيخبرنا القرآن الكريم أن يوسف ولد في فلسطين لنبي الله يعقوب من زوجة ثانية وأنه لصغره أو أنه من زوجة أكثر شباباً كان أقرب إلى قلب أبيه من اخوته العشرة من الأم الأخرى . ومن الواضح أن هؤلاء الأخوة كانت قضيتهم الأساسية هي كيفية التخلص من يوسف وليس من أخيه الأصغر مما يعنى أن قربه من أبيه كان لفضائل أخرى فيه بخلاف السببين السابقين، وأن يوسف كان لا يتجاوز فيما يبدو خمس سنوات بحيث يكون أقل من مشاركتهم في لعبهم وأقدر على حراسة متاعهم وأن هذه هي عادة كانت معروفة في ذلك الزمان من صور الرياضة والترفيه. أما البئر الذي ألقى فيه يوسف فيبدو أنه كان في أطراف القرية ليس ببعيد عن المكان الذي قال الإخوة لأبيهم أنهم كانوا يستبقون فيه وأن هذا البئر لم يكن مليئاً بالماء وإلا لغرق يوسف كما لم يكن كامل الجفاف وربما كان مهجوراً وأن جسم يوسف كان نحيفاً لأن أفراد السيارة الذين عثروا على يوسف تمكنوا من إخراج الدلو دون أن يلحظ الخادم أن به إنساناً وأن الحبل الذي يربط الدلو كان من القوة بحيث يحتمل هذا الطفل

الصغير. ويبدو أن يوسف كان قد أوحى إليه بمكر إخوته وأنه واثق أن الله لن يضيعه ولا بد أن الوارد أو الخادم الذي توجه الي البئر بأمل إحضار الماء قد ابتهج عندما فوجئ بأن الذى بالدلو ليس الماء وإنما هو غلام ذكر وهذا يعنى أن الصبية من الذكور كانوا يباعون فى الأسواق بأسعار أعلى وأن هذه بشارة كبيرة لمن أرسلوه إلى البئر. ومن الواضح أيضا أن مصر كانت تعرف فى ذلك الوقت تجارة الرقيق.

النقطة القانونية الأولى هى أن تجارة الرقيق كانت مألوفة وأن يوسف لصغره لم يكن جائزة كبيرة للذين عثروا عليه ولذلك يقول القرآن أنهم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين وأن الذى اشتراه ممن يعملون في سوق الرقيق ولكن الله فتح عليه عندما باعه لعزیز مصر مما يظهر أن الطفل بدا عليه أنه من بيت كريم لا يحتمل الالهانة.

فالرق كانت له مصادر متعددة منها الحروب ومنها الاعسار عن الوفاء بالدين (ولذلك ربط القرآن بين الربا وتجارة الرقيق لأن الربا كان من أبواب الرق)، مما يؤدى إلى استرقاق الدائن للمدين ولذلك حث القرآن الكريم على تجفيف منابع الرق وحسن معاملة الأسرى وحظر استرقاقهم وميز بين الاسير وبين ما سبق من اوضاع العبودية والاسترقاق لأن الناس فى الإسلام متساوون فى الكرامة الإنسانية.

وكان شائعا فى ذلك الزمان أن الرقيق يختلف عن الخادم . فالرقيق ليست له شخصية قانونية ولا يتمتع بأى حقوق ويعامل معاملة الأشياء، كما أن روما القديمة التى بدأت حضارتها فى القرن الرابع قبل الميلاد ربما بالتقابل مع قصة موسى كان لديهم سقوط صفة الحرية عن المواطن الحر فيصح رقيقا فى أحوال محددة وأهمها الفرار من الخدمة العسكرية والاعصار وغيرها مما ينزل الحر إلى مرتبة العبد ويسمى فى القانون الرومانى الموت المدنى La Mort

Civile أى انقضاء الشخصية القانونية والأهلية القانونية فى التصرف . وظل هذا النظام سائدا لقرون طويلة تالية والدليل هو فتوى العز ابن عبد السلام فى مصر لأن الممالك عبيد وأن العبد لا يجوز له أن يكون حاكما وهي الامامة الكبرى وأن هذا العبد الحاكم يجب أن يشتريه أحد ويعتقه حتى يصبح كامل الأهلية فيصلح للامارة . وبعد ذلك بعدة قرون جاء المتنبى الي مصر وهجا حاكم مصر فى ذلك الوقت أحمد الاخشيد وكان عبدا وقال فيه قولته الشهيرة: صار الخصي إمام الآبقين بها *** فالحر مستعبد والعبد معبود

ولذلك فإنه إذا كانت العبودية فى الإسلام لله وحده فقد جفف منابع الرق ووسع طاقات الحرية وجعل تحرير الرقيق أحد صور التكفير عن الخطايا أو الوفاء بالتزامات دينية. وهذه المساواة بين بنى البشر جميعا هى التى دفعت أشرف مكة إلى انتقاد الرسول وسخرتهم من دعوتهم لأنه لا يتبعه إلا "أراذلنا بادى الرأى" لأنه يسوى بين العبد والسيد فى المجالس فأبّت نفوس الأشراف تنزّل قدرهم ومساواتهم بعبيدهم.

النقطة الثانية: هى أن القرآن الكريم يستخدم عادة مصطلح الشراء وليس البيع على خلاف القانون المدنى الذى يستخدم عقد البيع وليس هناك عقد للشراء ولذلك عبر القرآن عن بيع القافلة التى عثرت على يوسف فى البئر بأنهم شروه بثمن بخس وكذلك يشتري المؤمن رضى الله بالعبادات والانفاق. والبخس فى اللغة هو عدم التناسب بين المبيع وبين الثمن تعبيرا عن زهدهم في اقتنائه.

النقطة الثالثة: هى أن التبنى كان نظاما معمولاً به حينذاك ، يدلنا على ذلك أن الذى اشتراه من مصر وهو عزيز مصر أو رئيس الوزراء حينذاك طلب من زوجته التى لا تتجب أن تكرم هذا الطفل لأنه قرر تبنيه فنقله من مرتبة

العبد إلى مرتبة الابن بالتبني لما في ذلك من تفاوت في المعاملة والمصير، فالعبد له أعمال معينة وللسيد عليه كافة الحقوق لأنه مشترى وليس له شخصية قانونية ولا ذمة مالية أو أهلية وهي من آثار وخصائص الشخصية القانونية، وذلك على خلاف الابن بالتبني. ويبدو من القصة أن زوجته (امرأته) كانت أصغر منه كثيرا وأنه عند وصول يوسف إلى بدايات الشباب كانت في عشريناتها المتأخرة فضلا عن جماله، مما جعلها تهيم به حبا " قد شغفها حبا". ذلك أن التبني لم يمنع هذه المشاعر ولذلك يبدو أن تلك الزاوية الإنسانية هي أحد مبررات حظر التبني في الإسلام ، ومن الواضح أيضا من ألفاظ القرآن على لسان العزيز أنه قصد منذ البداية ألا يسترق يوسف رغم أنه اشتراه، بدليل توصيته لزوجته بأن تكرم مثواه "عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا". وهي نفس الإشارة في قصة موسى.

النقطة الرابعة: هي أن التنقل عبر الكيانات القائمة في ذلك الزمان كان ميسورا وإن كان الأجنبي في ذلك الوقت كان محل شك وريبة ويرجح أن قصص جحا الخرافية كانت تعكس هذه الحقيقة، حيث كان الأجنبي جاسوسا إلى أن يثبت العكس، وكانت المنطقة العربية جغرافيا في العصور اللاحقة مرتعا لأي من أبنائها. وتطبيقا لذلك صار يوسف مقبولا للخدمة في بيت مصرى دون التحرى عن أوراقه وهويته وجنسيته، بل في بيت العزيز وكان ذلك أدعى للتحري الدقيق من الناحية الأمنية بلغة زماننا.

النقطة الخامسة: وضع اللقيط في عصر يوسف.

الملاحظ أن يوسف وموسى كانا لقيطين، وهذا الوصف له طابع مادي ووجه قانوني ولا يقدح في عظمة يوسف وموسى كأنبيااء الله أن نطلق هذا الوصف الذي استخدمه القرآن في حالتهم.

ذلك أن يوسف كان فى البئر، فالتقطه بعض السيارة، وأما موسى فقد وضعته أمه فى صندوق فى النهر فالتقطه آل فرعون، وكلاهما التقط لكى يستقر كلاهما فى بيت الحكم. واللقيط هو الشخص أو الشئ الذى يعثر عليه فى مكان عام ولا يعرف له صاحب أو أهل، ولو لم يكن يوسف لقيطا لما تم بيعه ولا أعيد إلى أبيه سيدنا يعقوب. ولو لم يكن موسى لقيطا لما أخذه آل فرعون "ليكون لهم عدوا وحزنا" ولو عرف فرعون أهل موسى لذبحه فرعون تنفيذاً للنبوءة، وهو من أطفال بنى إسرائيل.

النقطة السادسة: هى تخرش امرأة العزيز بيوسف وادعاؤها عليه، وهو عمل أفصحت هى عنه بعد ذلك وأصرت عليه رغم أنه صار فضيحة فى المدينة بلغة القرآن حيث امرأة العزيز " تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا" فهى تعلم أنه ليس ابنها وإنما هو متبنى ولذلك فهو ليس من المحارم بل يجوز له أن يتزوجها وهى تعلم أن وجوده فى بيتها بهذه الصفة وثقتها بأنه لن يذيع سرا شجعها على التخرش به والإصرار على ذلك، كما أنها لم تتردد فى توجيه التهمة إليه وهى تهمة تمس الحكم ومنزلة العزيز ومكانته، فانتشر الخبر بين الطبقة الارستقراطية التى تختلط بزوجة العزيز وأخذ النسوة يكيدون لها مما أوغر صدرها (الجهلهم بالمشكلة) فلا هى نالت منيتها ولا هى سلمت من السنة النسوة فابتكرت وسيلة جديدة لكى تبرر فعلتها وليس لكى تبرئ نفسها من الهيام بيوسف، حتى شهدت النسوة فى سكرة النظر إليه أنه ملك كريم وليس إنسانا عاديا مما كان له أبلغ الأثر فى اشتعال نار الوجد عند امرأة العزيز.

النقطة السابعة: أنه عندما حاول يوسف أن يفر من مطاردتها وتضييقها الخناق عليه بعد أن تهيأت له واستحضرت كل كيائها وثقل نفسها لهذا العمل، فإذا به يخيب ظنها ويحاول الهرب منها إلى خارج غرفة نومها، فوجدا معا العزيز يوشك أن يدخل الغرفة على غرة. وكان الموقف غير حاسم، فالفتى فى

غرفة النوم وهذا أمر طبيعي ومريب في نفس الوقت. فهو أمر طبيعي أن يدخل الأبن غرفة نوم أمه بالتبني، وهو مريب أن يدخل فتى هو في النهاية غرفة نوم سيدة البيت في غياب زوجها، ورغم أنه من الواضح أن يوسف استدعته زوجة العزيز لغرض في نفسها وهو يستجيب للدعوة ببراءة. ولكن القرآن يلفتنا إلى أنه همت به أي بادرت وطارحته الغرام ولكنه تأبى وإن كان القرآن يذكر لنا دخائل نفسه بقوله أنه هو أيضا تجاوب وهم بها وكاد يقع في الفاحشة لولا أن رأى برهان ربه.

الخلاصة أن المرأة شعرت بالإهانة فأصرت على مطاردته عندما فر أمامها يقصد الافلات من الباب، فإذا بهما يفاجان بسيدة لدى الباب. فكان اتهامها ليوسف رد فعل عفوي لتدفع عن نفسها أي شك في سلوكها ولترد فوراً على السؤال الذي فاجأ العزيز في هذا الموقف وكأنه يقول ماذا حدث، ما خطبكما. ويبدو من سياق السورة كلها أنها لم تكن تتوى أن تدفع بيوسف إلى درجة اليأس من نواله فطالبت زوجها بأن يعاقب من يعتدى على شرفه بالسجن أو بالعذاب الأليم. ولكن الله أراد أن يبرئ يوسف في هذا الموقف العصيب الذي ظلم فيه مرتين مرة أنه ضحية هجومها واستهدافه، ومرة أخرى باتهامه بأنه هو المخطئ، فأراد المولى أن يكافئه على أنه استعصم. فشهد شاهد من أهلها شهادة قانونية عبقرية، فلو شهد الشاهد مباشرة لصالح يوسف لكان الشك واضحاً في شهادته لأنه لم يكن معهما ولا يعرف من الجاني ومن الضحية، كما أن شهادة بهذا المعنى كانت ستسبب نقمة المرأة عليه. وكانت شهادته أنه وضع قاعدة عبقرية في الإثبات الموضوعي مادامنا أمام مدعى ومدعى عليه. فهي تعلم يقيناً أنها المتحرش بيوسف. (اعترفت في النهاية) " أنا راودته عن نفسه فاستعصم ليعلم أنني لم أخنه بالغيب .." ولم تقصد أن تعاقبه على جريمة

لم يرتكبها ولكنها ردة الفعل التلقائية لتدفع عن نفسها الظنون التي استولت على العزيز فور مفاجأته بالمشهد، أو لعلها أرادت أن تعاقب يوسف لأنه استخف بمشاعرها وأحبب نيران تعلقها به وكسر كبرياءها وأهان أنوثتها.

والقاعدة التي تميز بين الجاني والضحية هي أنه إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، فقدم افتراض اتهام يوسف وحفظ لمقام المرأة مكانتها، أما إن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين. فقد القميص من قبل يعنى أنه يهاجمها ولكن قد من دبر يعنى أنه يفر منها وأنها شقت قميصه وهي تستوقفه من الخلف. فتأكد للعزيز براءة يوسف وأن امرأته هي المعتدية، فأدان العزيز زوجته وطالب يوسف بالصفح وتجاوز الإساءة وعزا زوجها موقفها إلى صفة في كل النساء وهي عظم كيدهن، وطالبها بأن تستغفر لذنبها، فقد ارتكبت ذنبين، الأول أنها تحرشت به، والثاني أنها ادعت كذبا ذلك عليه وافترضت أن العزيز سيصدقها حين افترضت خطأ يوسف في شرف العزيز وحددت العقوبة ليوسف بالسجن أو عذاب عظيم.

النقطة الثامنة: إذا كان العزيز قد تأكد من براءة يوسف مما زعمته زوجته فلماذا قرر سجنه؟ من سياق السورة يتضح لنا إلحاح زوجته على يوسف واستمرار إصرارها على افتراسه خاصة بعد أن أسكتت النسوة اللاتي لمنها في حبه وأفحمتهم لتبرير ثورتها عليه وليس لتبرئة نفسها مما انتشر في المدينة، فلم ترد الإشاعة بأن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، قد شغفها حبا، ولكنها حرصت على الحصول على هزيمتهن أمام جماله، وقالت لهن فذلك الذي لمتننى فيه، وفيما بعد عبر الشاعر العربي عن حالتها قائلاً:

يا لائمي ما أنت أول لائمي

دعنى لحاك الله لست بعاقل

لو كنت تعلم من أحب عذرتنى

لكن جهلت فلمتنى بالباطل

ولكن الشاعر يتحدث عن هيام رجل بامرأة، بينما امرأة العزيز هى التى تهيم بالرجل.

وعندما استقوت امرأة العزيز بشهادة النسوة صعدت محاولاتها عليه، وهو أسير فى بيتها فاستنجد بربه بما يظهر بجلاء بشريته" إن لم تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ". ولكن مع إصراره على نبوته التى تعصمه من النوازع البشرية . ولو صبا إليهن لسقطت عنه النبوة، كما أنه يبدو أن عددا من النسوة وقعن فى حبه أيضا فتظاهرن مع زوجة العزيز وربما تسابقن أيهن تفوز بقلب يوسف وبذلن له من تزلف النساء وحيلهن ما اضطره إلى الاستجداد بربه.

من الواضح أيضا أن العزيز عندما لاحظ هذا الموقف العصيب ليوسف خشى من الفضيحة فى بيت الحكم، فلم يحله إلى قضاء ويبىدون أن السجن السياسى كان معروفا فى مصر فى ذلك الزمان أى السجن لأسباب سياسية دون بيان هذه الأسباب أو لعلها قضية تتعلق بالأمن القومى كما نزع هذه الأيام فأراد العزيز أن ينقذه يوسف من ضغوط النسوة مع زوجته خاصة عندما أصرت زوجته على العصف به ما لم يفعل ما تأمره به فالسجن السياسى ليس بحكم قضائى وغير محدود المدة، وربما كان إجراءً تحفظيا لحماية يوسف ووقف أخبار الفضيحة .ومن ناحية أخرى أراد الله أن يحميه من الضغوط والسقوط فى الضعف البشرى.

النقطة التاسعة: هى أنه مادام السجن السياسى لا موعده لنهايته فقد كان مقررًا أن يبقى يوسف فى السجن بقية حياته، ولولا أن الله قد من على يوسف بموهبة تفسير الأحلام والرؤى لمكث فى السجن حتى الموت.

من زوايا أخرى، غلبت على يوسف بشريته وربما نسي أنه نبي أكثر منه بشرا فاستطال سجنه حتى حاول أن يعبر عن أمله في أن يخرج منه، ولذلك أوصى أحد زملائه في السجن الذي بشره بأنه سيكون ساقى الملك أن يذكر به الملك وهو غير العزيز الذي ربي في كنفه وتسببت امرأته في سجنه، فأنساه الشيطان بطلب ذلك من ربه، فنسى في السجن عدداً آخر من السنين، فتذكر زميله قصته صدفة عندما طلب الملك من يفتيه في رؤياه فتذكر موهبة يوسف فأراد من ناحية أن يتقرب إلى الملك، بأن يفسر له رؤياه، وربما أراد أيضاً أن يرد ليوسف المعروف والجميل ويفي بما وعد به لقاء بشره بخروجه من السجن وعمله بالقرب من الملك على عكس زميلهما الذي رأى يوسف أنه سوف يعدم، وهذا يشير إلى أن السجين السياسى يلقي به في السجن ثم يتقرر مصيره بعد ذلك، إما باستمرار السجن أو بالإعدام.

النقطة القانونية العاشرة: عندما وضع (مكيال) الملك في ركب أخ يوسف عمدا ونادى المنادى بأن الصاع مفقود وسوف يتم التفتيش في كل الأحمال التي بدأت المسير إلى بلادها. من الواضح أن مصر أيضاً كانت تنتج لتصدر إلى البلاد المجاورة، وكانت أرغد الأرض المعمورة في ذلك الزمان، وأن الحاجة إلى الحبوب من مصر هو الذى دفع أخوة يوسف إلى مصر. وعندما تم النداء على العير الحاملة للحبوب وتوقفت لتفتيشها لابد أن إخوة يوسف تحسبوا ونشأوا من هذا الموقف، ثم صار التشاؤم فزعا عندما عثر على الصاع في حمولة أخ يوسف لأن هذه القضية لها خلفياتها المحزنة فقد حزن يعقوب على فقد يوسف ولم يفرط في أخيه ويرسله مع أخوته هذه المرة إلى بلاد بعيدة إلا بعد أن أخذ عليهم موثقا غليظا من الله أى أقسموا له بأغلظ الإيمان. والراجح أن إلحاح الإخوة على أبيهم كان أشد من إلحاحهم عليه عندما تأمروا على يوسف، ولكن اصطحاب أخيه معهم هذه المرة كان مخلصاً وليس

بدافع التخلص منه في مؤامرة، ولذلك كانت أيمانهم خالصة، ويبدو أن أباهم قد اهتزت لديه الثقة فيهم فبقى في نفسه شئ من الشك، هم يدركونه قطعاً، ولذلك فإن إعلان وجود الصاع في ركب أخيه الأصغر شقيق يوسف من أمه وأبيه اضطره إلى أن يسترجع هذا الشريط.

اللقطة القانونية الحادية عشرة: في هذا الموضع من قصة يوسف هي أنه عندما أعلن عن ذلك وأعلن أنه سيتم احتجاز من وجد الصاع في ركه سارع كبير الإخوة بعرض نفسه بدلاً من أخيه فقال يوسف معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا الصاع في ركه وكان بذلك يؤكد على قاعدة جهرية في المسؤولية الشخصية وهي أنه لا تزرر وزارة وزر أخرى، علماً بأن تاريخ القانون المصري القديم يظهر حتى قصة الفلاح المصري الفصيح، قاعدة أخرى وهي أن من يقود الحمار هو المذنب وتم اعتقاله، ولم يكن مبدأ مسؤولية المتبوع عن أعمال التابع قد استقرت في الأعراف القانونية في المنطقة، ويبدو أنه لا تعارض بين القاعدتين على أساس أن الجريمة والعقوبة مرتبطة بالشخص، وهو ما أكدته القرآن الكريم بعد ذلك بقرون بقوله تعالى وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه، ولا تزرر وزارة وزر أخرى" التي تكررت في أربعة مواضع هي سورة الأنعام الآية ١٦٤، وسورة الإسراء الآية ١٥، وسورة فاطر الآية ١٨، وسورة الزمر الآية ٧، فكانت القاعدة سارية في النظم القانونية وفي الآخرة يوم الحساب.

النقطة الثانية عشرة: هي قول كبير الإخوة لأبيه مؤكداً جرم ولده الأصغر بأنه ما شهدنا إلا بما علمنا، وطلب منه أن يستوثق من القصة بأن يسأل من كانوا يشترون الحبوب من البلاد المجاورة.

هذه النقطة تلقى الضوء مع واقعة وشهد شاهد من أهلها في بداية القصة يوم تحرشت امرأة العزيز بيوسف على عدد من الأمور الهامة.

المبحث الثاني

قصة موسى

شاء الله أن يكون اثنان من أنبياء الله من بنى إسرائيل معروفين في الإسلام والمسيحية واليهودية، هما يوسف وموسى بالإضافة إلى داود وسليمان. الذي يجمع بين يوسف وموسى كثير متميز نحسب خمسة منها على الأقل، أما الذي يجمع بين داود وسليمان فهو أن الأول والد الثاني وقد وهبه الله الحكمة وفصل الخطاب وكانت دعوته إلى قومه من بنى إسرائيل ثم أسلمت بلقيس مع سليمان فصار اليمن مسرحا للدعوة الجديدة وكل ذلك من آثار موسى.

ذلك أن الأقدم هو يوسف بن النبي يعقوب من سلالة إبراهيم وشاء الله ليوسف أن يولد في فلسطين وأن يتربى في مصر وأن يلعب فيها ويصبح مصرف ميزانيتها وزراعتها وتجارها فهو وزير الاقتصاد بكل فروعه والذي جنب مصر المجاعة بحسن ترتيبه وتدبيره. وكان يوسف سببا في استقدام بنى إسرائيل وغيرهم إلى مصر للتجارة أولا ثم الإقامة، ولذلك أسس لبنى إسرائيل في مصر. أما موسى فقد ولد في مصر من الأقلية من بنى إسرائيل وتربى وبعث فيها إلى بنى إسرائيل وفرعون مصر. معنى ذلك أن بنى إسرائيل هم أول قوم يؤمنون برسالات السماء بينما كذبت أقوام "فكيف كان عذابي ونذر" بنص القرآن، "فكيف كان نكير". وبنو إسرائيل هم أكثر من نزلت فيهم الرسالات وبعث منهم الأنبياء والرسل فهاهم أربعة من الكبار يبعثون فيهم، ولكن القرآن يخبرنا أنهم أيضا أشد الأقوام ضلالا وعتوا وتعنتا بل هم من انفرد بقتل أنبياء

الله (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم فريقا كذبتهم وفريقا تقتلون) كما أخبرنا القرآن الكريم عن تحريف رجال الدين فيهم للكتب المقدسة وزعمهم أنها من عند الله، وهم يعلمون ويدركون تدرج الرسالات ويعرفون محمدا كما يعرفون أبناءهم. ثم أن بنى إسرائيل هم من نزل فيهم موسى وعيسى باثنتين من الرسالات السماوية الثلاثة، فهموا بقتل عيسى وصلبه مما صور للمعاصرين ذلك لولا أن القرآن أخبرنا أن الله أنقذه منهم ورفعته إليه، ولا بد أنه أماته ثم رفعه فلا يغادر الانسان هذه الدنيا الا بالموت وهو مؤكد بالتصوص القرآنية، فهذه لا يجوز أن تكون قضية للخلاف بيننا أو بين المسلمين والمسيحيين، فالعلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضر مادام المسيحيون يبنون عقيدتهم على أن المسيح صلب وأن آلامه فدية لآلام البشر، أو أن المسيح رفع إلى الله حيا قبل أن يميته الله. سواء طبقنا القاعدة العامة في أن كل مولود ميت ولا فكاك، أو استثنى عيسى باعتباره استثناء على طريقة الخلق، فلا ضير أن يكون استثناء في قضية الموت.

وإذا كان عيسى قد قال بنص القرآن لبنى إسرائيل إني رسول الله إليكم، فيرجح من الوارد أيضا أنه من بنى إسرائيل، لكن الوارد أيضا أن يكون من بنى إسرائيل وأنه بعث إليهم، فإن كان من بنى إسرائيل فلما تحرشوا به وعادوه ولا يعدونه منهم ولم يؤمنوا بدعوته، أما إن كان من بنى إسرائيل، فمعنى ذلك أن بنى إسرائيل لم يعطوا رسالة موسى ما يستحقه وأنهم حرفوا التوراه لما عرفناه يقينا في القرآن الكريم. وعلى أية حال، لا يعد من صلب العقيدة نسب عيسى، من عرب فلسطين أم من بنى إسرائيل وكلاهما يحتمل الجدل.

الوقف القانوني الأولى هي أن موسى من أبناء الجالية الإسرائيلية التي وفدت إلى مصر منذ مئات السنين في عصر يوسف. وإذا كان القرآن أخبرنا

أن فرعون كان يسوؤهم سوء العذاب ولا نعلم كيف عاملهم المصريون، كما لا نعلم هل المصريون عاملوهم هكذا منذ استقدمهم يوسف أم أنهم أساءوا إلى الحاكم فعاملهم بقسوة تليق بأعمالهم. ولابد أن قسوته فاقت الحد لدرجة أن الله جلت قدرته أراد أن يخرج من أصلا بهم من يواجه فرعون بالإله الحق ويسفه أساس شرعية حكمه باداء الألوهية، ومع ذلك لم يقل لنا التاريخ ما أثر دعوة موسى على المصريين خاصة بعد فرعون، وهل انقلب المصريون عليهم بعد غرق زعيمهم في اليم عندما كان يلاحق ويطارد موسى، أم اتعظوا وهل استمر الملك الإله في مصر بعد غرق الفرعون، علما بأن الظاهر أن المصريين اعتبروا دعوة موسى وإقامته بينهم، وعذاب الله لهم نقمة عليهم وتحسروا على أيام حاكمهم الإله الغريق.

وقد ولد موسى في مصر في السنة التي كان الفرعون يقتل الذكور من بنى إسرائيل من مواليد ذلك العام، ثم أن آل فرعون التقطوا موسى في تابوته العائم المار أمام بيت الفرعون. ولما كان الفرعون لا ينبغي فقد عرضت زوجته أن يتخذها الطفل اللقيط ولدا بالتبني، فكأنما موسى تربي في القصر على أنه ابن الفرعون بالتبني رغم شعور الفرعون المتشكك في الطفل وشعور زوجته المرحبة بهذا الطفل، ورغم أن القرآن الكريم أخبرنا أن آل فرعون التقطوه لكي يصبح لهم عدوا ومصدر حزنهم، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص ٨) وهذا الخطأ خارج عن حسابات البشر تماما، فكأن التقاطه وتربيته في بيت الفرعون كان خطأ في قوم لا يعبدون الله فوصموا بالخطيئة والخطأ في وقت واحد.

الوقف الثانية هي أنه مادام موسى طفلا لقيطا ومولودا على أرض مصر فقد صار مصريا ويحتمل أنه كان عضوا في الأسرة الحاكمة.

الوقفه الثالثة هي سلوك فرعون مع السحرة ومن الواضح أن فرعون كان هو القانون وأن انعدام القانون كان واضحاً في مصر في القضايا السياسية منذ قصة يوسف. فكان فرعون يملك العقيدة كما يملك أن ينزل العقاب بمن يخالفها ولكن ألوهية فرعون قد انهارت باعتراف السحرة بإله موسى وهارون أى سقوط الشرعية السياسية لنظام حكم الفرعون.

الوقفه الرابعة أن من خرج من مصر مع موسى كانوا من بنى إسرائيل فى مصر ولكن يبدو أن قهر فرعون وبطشه بالسحرة دفع بعض المصريين المؤمنين بإله موسى إلى التخفى تجنباً لمصير السحرة ويبدو أنهم أيضاً لم يخرجوا مع موسى وبذلك نفترض أن بنى إسرائيل هم الذين خرجوا معه وهم الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم وليس فيه أى إشارة إلى مصريين لحقوا بهم خاصة وأن نسبهم إلى بنى إسرائيل سابق على رسالة موسى وهى الرسالة اليهودية.

الوقفه الخامسة أن يوسف وموسى أنبياء الله وهو الذى اختارهم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام ١٢٤). ويفترض انهما اكتسبا الجنسية المصرية ولذلك فإن رسالتهما لا تحسب لليهود أو بنى إسرائيل أو إسرائيل فيما بعد خاصة وأن الأوساط الصهيونية التى تضيف إنجازاتهما إليها وتمن على مصر بفضلهما لا محل له، كما أنه لا يمكن القول أن جنسيتهما المصرية ليس لها دلالة أكثر من تكريم الله لمصر بأنبيائه. فالعلاقة بين الأنبياء وربهم علاقة جذرية أما علاقة هؤلاء الأنبياء بالمكان الذى ينزلون فيه فهى علاقة عابرة لا يجوز أن تتسى القارئ العلاقة الأكبر وهى أنهم رسل الله.